

في الأدب المقارن

الطور الفني

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

نمعرّف به الإنسان أنه حيوان يتذوق الفن ، فحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه ويتوفر له قوته وحاجاته ، فإذا ما فرغ من الضروري من أموره التفت إلى الجمالي ، وطلب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتق بينها وتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجاتها من الرقي المادي والعقلي . والرقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة إلى الظهور ، لقلّة ما تحتاج إليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنثر الفني والنحت والعمارة ، فأكثر تأخرًا عنها ، لما تحتاج إليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار في موطن ومهما بلغ الشعر من التقدم في عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ؛ فإذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أسلوبه باستخدامه التدوين والتروى ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنًا وهو النثر ، وظهر بجانب الشعراء الكتاب ، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتأخم مجال العلم أو يتداخل وإياه ، وإذا بدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الأخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر في عهد البداوة معزولاً لا يحس به سواء ولا يعلم هو بوجود غيره ، ويتفقد الأدب توارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان في عهد بداوته سريعاً إلى التلاشي في ضباب النسيان ، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده إلا القليل المحرف غير المستيقن حين تحضر الأمة وتتقف ، يصح شعرها فنياً ويظهر بجانبه النثر الفني ؛ على أن هذا يستغرق زمناً ، ولا يجيئ الفن إلا متأخراً عن الصناعة وعن العلم . فالإنسان يعمد دائماً إلى الضروري ، حتى إذا ما قضى منه وطره تحول إلى الفن ، أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادي إلى فن لا غرض له خارجاً عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير

جديرة بالتقدير ، فإن إدراك القوة الناطقة لنفسها وإدراكها أنها تدرك أساس موضوع السفور الذي هو من أهم مباحث علم النفس الحديث ، ويمكننا أن نسلم إلى حد ما أن القوى الذهنية أقدر على تحمل المجهود من الأجهزة الجسمية . وليس بغريب على ابن سينا وهو الطبيب المعروف أن يقوم بمثل هذه الملاحظات ولا سيما وأستاذه أرسطو قد سبقه إلى بعضها ومهد له سبيل توسعتها^(١) . ولكن الغريب هو أن تستخدم أفكار أرسطية في إثبات أمر لا يقف أمامه أرسطو موقفاً واضحاً ، فانه غير صريح صراحة أفلاطون في القول بفصل النفس عن البدن وتميزها عنه ، فكان ابن سينا يبرهنه السابقة ينتصر لأفلاطون في الوقت الذي يزعم فيه أنه يردد آراء أرسطية . وإذا ما شئنا أن نحكم على هذه البرهنة في ذاتها ، وخاصة في جزئها الأخير ، وجدنا قيمتها موقوفة على تفسير الصلة بين الجسم والروح ، وهذا ما سنحاوله في الفرص المقبلة إن شاء الله .

ابراهيم مركور

(1) Aristote , (De l'âme), III, 4.

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ احمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم

في صورة قوية تحليلية رائعة

ثمّة عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب

ومن ذلك التراث الأدبي الزاخر يكتسب الأدب شيئاً آخر :
يكتسب على مر الأجيال لغة أدبية خاصة ، وألفاظاً خاصة للشعر
وأخرى للنثر ، قد صقلها الاستعمال الطويل ورفعها استخدام كبار
الأدباء إليها إلى مرتبة عالية ، وارتبطت بمعان سامية ، مما يجعلها
أهلاً لما ينزع إلى تصويره الأدباء من عواطف رفيعة ، فيصير
للشعر والنثر من كل ذلك لغة خاصة منسجمة على لغة العصر المستعملة
في الكلام ، الممتازة بسهولة وإسفافاً أحياناً ، وتطورها المستمر
بتطور الحضارة المادية ؛ وتظل لغة الشعر والنثر الخاصة تلك في
ازدياد كلما أضاف إليها أقطاب الأدب ألفاظاً من اختراعهم أو
اشتقاقهم أو مما يرفعونه بعقرياتهم من لغة العامة ، أو يقتطفونه
من لغات الأمم الأخرى ، وتتوارث في الأدب بجانب ذلك
تعبير خاصة جارية وبجارات وأخيلة وأمثال ، يموت بعضها تدريجاً
وبحسب بعض ، ويزداد بمرور الزمان صفلاً والسيافاً
هذا الطور العنى لاشتت طور نضج الأدب وبلوغه أشده ؛ فيه
يجمع بين حرارة الشعور وعمق الفكرة ، وبين طراقة الموضوع
وجودة الأسلوب ، وفيه يتخلص من أقداء المادية وشوائب
الصناعات ، وفي هذا الطور لا في طور البداوة يظهر أكبر أدبائه
وخولة شعرائه ؛ وما يزال الأدب في رقيه المطرد ، وتراثه في
ازدياده المستمر ، مادامت في الأمة فورة الحياة وصدق الشعور
وصحة النظرة ، فإذا خمدت النفوس وزاغت النظرات ، انقلب الفن
صناعة ، والحرية قيوداً ، وتمسك الأدباء بالقشور دون اللباب ،
وبالألفاظ دون الحقائق .

كان أدب الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر من الإسلام
بدويًا : الشعر قوامه والبساطة سمته والقريب الحاضر من شؤون
الحياة مادته ، محدود المواضيع ، غير منسق الأسلوب ولا منظم
الافكار ولا ظاهراً لوحدة في القصيدة . وقد استعاض العرب
عن التدوين بالرواية : يروى أشعار كل خلل ناشئ يقوم له مقام
الديوان المخطوط ، ويقوم الشاعر من روايته مقام الأستاذ يبصره
بالشعر ووجوه القول ؛ وبطريقة الرواية هذه حفظ من شعر
العرب شيء كثير ، وبها ترعرعت الصناعة الشعرية حتى بلغت في
هذا العصر مبلغاً من التقدم يعتد به ، وصارت لها تقاليد خاصة
في الأضلاع والمعاني والألفاظ ، كنصريع البيت الأول من
القصيدة وتقديم النسب في مستهلها ، تجلي كل هذه الميزات في
الملحقات ، التي يتحدث صاحب كل معلقة منها في نفس القصيدة ،
عن أحبابه وشرابه ، وحريره وأسفاره ، وحكمته وآدابه وقيلته
وعزها وهلم جرا

وبازدياد حظ العرب من الرفاهة والثقافة والتهدب ، ازداد

والنحت والعمارة والنثر جميعاً ، تكون في أول أمرها صناعات
تخدم أغراضاً مادية وتسد حاجات الإنسان ، من اتخاذ المسكن
وزيئته وتدوين المهم من الأحكام والمواظظ والأخبار ثم العلوم ،
فاذا ما اطرد سلم الرقي تخلص الفن من تلك الأغراض الخارجية
وصار غرضاً في نفسه ومتعة في ذاته ، وتعبيراً عن الشعور خالصاً ،
وعبادة للجمال منزهة .

إذا ما دخل الأدب هذا الطور الفني ، صارت الصنعة الفنية
فيه أظهر والتجويد أوضح ، وليس يخلو الشعر حتى في بداوته من
صنعة ومعالجة وتجويد ، وبغير هذه لا يتصور له وجود ولا لسلكه
انتظام ؛ يد أن الأدب في الطور الفني يصبح أكثر بصراً بتجويد
اللفظ وتنسيق الأسلوب وتجميل المعنى ، لما يمتاز به دون شاعر
البداوة من ترفه المعيشة ورقة الذوق وسعة القراءة ، والاطلاع
على الآثار الأدبية والقواعد والآراء ، فكلما أمعن الأدب في طوره
هذا زاد الأدباء لالفاظهم تخيراً وتسهيلاً ، ولا ساليهم تنسياً
وتذليلاً ، وللمعانيهم استقصاء وتوضيحاً

وتزداد موضوعات الأدب انشاعاً وبعداً عن أسباب الحياة
الشخصية الحاضرة ، وتحليلاً في عنان الفكر وأجواز الخيال وآفاق
المحاسن والمستقبل ؛ فعلى حين يكون أكثر ما ينظم من شعر البداوة
نتيجة حادث طارئ أو خاطر عابر ، يتوفر الأدب في الطور الفني
على تقصى غايات التفكير ، إرضاء لزعمة التأمل والتفكير في ذاتها ،
وعلى توخي مناحي الفن حباً للفن وحده ، ويمسى الأدب ويصبح
ولاً له إلا استقصاء حقائق الحس والمشاهدة وتصويرها
في أدبه ، وتكثر في الشعر والنثر آثار التأمل الطويل والوصف الفني
ولذا ما تكاثرت الآثار المتجمعة بالتدوين جيلاً بعد جيل ،
وزخر التراث الأدبي بما تجود به فرائح الأدباء من فيض ، إذا
انقضت سحائب منه أعقبت بسحائب كما يقول الطائي ، وكثر
نظر الأدباء فيها واستظهارهم لها واحتذاؤهم إليها ، لم يعدوا أن
ينتهوا إلى شواهد فيها تتكرر ، وحقائق تتأثر ، وجزئيات تدرج
تحت كليات ، فاستخلصوا من كل ذلك قواعد يجعلونها نصب أعينهم
في الإنشاء ، ثم يحتفى بعضهم بجمعها وتبويبها والاستكثار من
أمثلتها ، فتكون من ذلك علوم المعاني والبيان والبديع ، وكتب
النقد والموازنة والتحليل ، وبرغم أن الفن سليقة والأدب ملكة
لا اكتساب ، والشعر طبع لا تطيع ، فإن تلك العلوم وهانئك
الكتب المستحدثة ترك أثرها في تقويم السلائق ، وتوجيه الملكات
وتحسين البصر بالأدب وأسبابه ، وجمع أشتاته ولم أطرافه ، ولا
يستأثر النثر بهذا البصر في الأدب ، بل ينظم الشعراء القصيد في
مزايا الشعر وأطواره وأحوال الشعراء

حضارة أوروبا، وخدمت فيها الفن واستتب السلام في ظل آل تيودور. ومن ذلك العصر يبدأ الطور الفني للأدب الإنجليزي وهو طور تاريخه تاريخ رقي مطرد للأدب في الأشكال والمواضيع والافكار والاساليب، وتخلص مستمر من شوائب الصناعة وتجرد تام في عالم الفن الصحيح. والأدب الإنجليزي في هذا كله يمثل التطور الطبيعي المعقول لكل أدب: جرى الشعر إلى غاياته وتلاه النثر، وتوسعت جوانب كل منهما تدريجاً، وتعددت مجالاته وتميزت أشكاله وتبينت أغراضه —

نهأت لكلا الأدبين العربي والإنجليزي أسباب الدخول في الطور الفني. فازدهرت الحضارة وذاقت العلوم ودونت الكتب وانتشرت الرفاهية وتوفر الوقت للعمل الفني المتصل، بيد أن الأدب الإنجليزي كان أبعد شوطاً في مضمار الفن الخالص، وأكثر تجرداً من شوائب الصناعة والمادة التي تلازم الأدب أو الفنون عامة في بدايتها، إذ أحاطت بالأدب العربي ظروف حالت بينه وبين التخلص من جميع هاتيك الشوائب، فجاء الأدب الإنجليزي أكثر فنية في الموضوع وفي الأسلوب —

ففي الموضوع احتوى الأدب الإنجليزي من تصوير الطبيعة وسير الأبطال وخرافات الماضين وأوصاف الرحلات وآثار الفنون الأخرى كالصوير، ما يفيض جمالاً وتنعم منه نسمات الفن الخالص والفكر البعيد والانسانية الشاملة، وكل هاتيك مواضع لم يولها الأدب العربي مكانة أولى، وفي الأسلوب توفر الأدباء الإنجليزي على استخدام اللفظ قدر المستطاع لإدغام المعنى وتصوير المنظر، مستعينين بجرس اللفظ وتنم الوزن في النظم، في حين اهتم أدباء العربية للفظ في ذاته لا على كونه مجرد وسيلة للمعنى، وظهرت الوحدة الفنية أو الفكرة الجامعة في القصيدة وفي المقالة وغيرهما من أشكال الأدب في الإنجليزية، على حين ظلت القصيدة في العربية وإن أصبحت أكثر تقسية وأجود ترتيباً مما كانت عليه من قبل، عديمة الوحدة مختلطة الأجزاء، نثب من قريب إلى بعيد ومن نسيب إلى مديح، ومن مديح للغير إلى نثر بالنفس، ومن نثر إلى شكوى —

ولم يتخلص الأدب العربي من شبهات الصناعة والسر المادي قط: إذ ظل أكثر الشعراء والكتاب يخدمون الأمراء ويتوخون مواقع رضاهم. وليس يخرج الأدب من حيز الصنعة إلى عالم الفن الحر مادام ذا غرض خارج نفسه. وذلك ما لم ينكره أدباء العربية أنفسهم، فظلوا يسمون الأدب صنعة أو حرفة أو آلة، وكان النقاد يوازنون بينها وبين صناعة المغنين، ويقول ابن

الشعر تهذيب لفظ واتساق أسلوب، كما يتمثل في شعر ابن أبي ربيعة وجمل؛ وظهر النثر يستخدم أولاً في تدوين العلوم ورسائل الأمراء وإجراءات الحكومة، ثم مازال حتى استحاله على أيدي ابن المقفع والمجاذب والبديع، فنا يتطلب الجمال اللفظي والمعنوي ويتوخى نواحي الفن ومذاهب التفكير بعيدة عن النفع المادي والغرض الحاضر. وبلغ الشعر الغاية من الصناعة الفنية والحلاوة اللفظية، والتقسيم الموضوعي، والتقصي في المعاني، والفن في الوصف. على أيدي أبي نواس وأبي تمام وابن المعتز وابن الرومي وغيرهم؛ وهؤلاء وأضرابهم هم لأشك خولة شعراء العربية، وإن ظل كثير من الأدباء لنزعهم من المحافظة يقدمون أمراً القيس وأنحاه من الجاهليين. وظهرت كتب النقد وعلوم البلاغة، ونظم الشعراء القصيد في إطار فهم، ودبحوا أشعارهم بالتشبيهات والأمثال يحتفون بطلبها ويكاثرون بعرضها، كقول الطائي:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيها جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
وقد سئل بشار فيما قيل: بم قتت أهل عسرك في حسن معاني
الشعر وتهذيب ألفاظه؟ فأجاب: بأني لم أقبل كل ما توردته على
قريحتي، وبناجيني به طبعي، ونظرت إلى مغارس القطن، ومعادن
الحقائق، ولطائف التشبيهات، فسرت إليها بفكر جيد وغريزة
قوية، فأحكمت سرها واتقيت حرها، وكشفت عن حقائقها
واحتزرت عن متكلفها. فهذا قول أديب صناع يروض المعاني
والألفاظ، ويعرف خطر التروى وإعمال الفكر، ولا يرسل القول
على عواهنه، ولا يطمئن إلى الارتجال الذي كان شيعه الجاهليين.
ومن أمثلة التدقيق في انتقاء الألفاظ ونقدها ومراعاة تناسب
حروفها ومخارجها أيضاً، أن ابن المعتز عاب على أبي تمام تكرار
كلمة «أمدحه» مع الجمع بين الحاء والهاء، وهما معاً من حروف
الحلق، وذلك في قوله:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ملته ملته وحدى
هكذا يجرى تاريخ أدب كل أمة: يبدأ بطور أولى، الأدب
فيه ظاهراً البداوة، يليه طور فني تابع لتحضر الأمة وأخذها
بأسباب الكتابة والعلم، وقد استطال الطور الأول في العربية
وغزر ما حفظ من آثاره لظروف خاصة، وإن يكن الكثير مما
اثر من ذلك موضع الشك. أما الأدب الإنجليزي فلا يحتوي
تاريخه على آثار ذات بال تمت إلى الطور الأول المتبدى، إلا
أساطير وشذوراً اتخذها الأدب فيما بعد مادة لسبحاته الفنية، وإنما
يبدأ تاريخ الأدب الإنجليزي الصحيح بعصر اليزايت الذي كانت
الأمة فيه قد تشربت ثقافة اللاتين والاعريق، واقتبست كثيراً من

الجباية في الاسلام^(١)

للأستاذ فارس بك الخوري

أستاذ على المالية والمرافعات المدنية

ورئيس المجلس النيابي السوري

استندت الجباية عند العرب على الأسس الآتية :

١ - على القواعد المستنبطة من الكتاب والسنة ؛

٢ - على ما استنه الخلفاء الراشدون ؛

٣ - على ما أخذوه عن الدول التي غلبوها على أمرها فلم تكن أموال الدولة في أيام الرسول سوى الغنائم يخرجون خمسها للنبي وأهل بيته ويقتسمون الباقي بين المسلمين .

وكانت الخزينة في عهده قائمة على ما يجتمع لديه من الصدقات والزكوات من ماشية وتقود وجيوب وعروض يتصرف بها في وجوه المصلحة العامة . ثم عند ما اتسع أمر الاسلام عمد إلى وضع الخراج . فجعل على سكان جزيرة العرب من المسلمين خراج . مقاسمة على حاصلات أرضهم من العشر إلى نصف العشر بحسب درجة الأرض من الخصب ونصيبتها من الري ، فكانت أرض الجزيرة بتمامها عشرية ماعدا خير فقد صالح يهودها على نصف حاصلات أرضهم . وكان يسم الماشية العائلة بيت المال بميمم خاص ويتولى ذلك بنفسه ؛ وبلغت هذه الماشية في عهده نحو أربعين ألفاً . وبقي خمس الأفياء يعطى لأهل البيت حتى تولى الخلافة عمر بن الخطاب فعين الرواتب لمستحقها من أهل البيت ومن القائمين بخدمة الخليفة من الخاشية والبطانة وأجراها عليهم شهراً بشهر ، ورد الأثمان على بيت المال لتقسم على المسلمين

وعند ما توسع الفتح الاسلامي واستولى المسلمون على بلاد الروم والفرس في العراق والشام اختلف زعماء العرب في الخطة الواجب اتباعها باستحواز الأرض و « العلوج » الذين عليها ، فاراد قوم من الصحابة وزعماء العرب أن يقتسموا

رشيق في تعليقه على حكاية شاعر مدح علويّاً ثائراً فدفعه المنصور حياً : إن ذلك الشاعر قد جنت عليه حماقة ، إذ ما للشاعر وللزج بنفسه في أمثال تلك المآزق وإنما هو طالب فضل ؟

واختفى أدباء العربية بالالفاظ احتفاء متزايداً : فنشأ السجع والطباق والجناس والتورية وما إليها في الشعر والنثر معا ، حتى بدا اللفظ منافساً للمعنى مزاحماً له على ابتغاء القاري . وفهمه ، بل صارت له في النهاية المكانة الأولى ، وتضامل المعنى بين يديه واختفى ، وأصبحت مهمة الأدباء موجهة لا إلى النوص على حقائق الوجود وبواطن الشعور . بل إلى اقتناص شوارد الكلم وبارع النكات اللفظية ، فعيسى بن هشام مثلاً يقول إنه كان بطوف البلدان وقصارى لفظة شرود أصيدها ، وكلمة بليغة أستردها ، وعيسى بن هشام أيضاً يعيب على الجاحظ أنه قليل الاستعارات قريب العبارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معنائه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟

ولنما قصر بالأدب العربي عن غايات الفن المطلق ، ما قيد به من اتصال بالأمراء ، وما أرق به من تقليد للقديم : أدخلت الأولى فيه التكلف والصنعة ، وأبقت فيه غرضاً خارجاً عن نفسه وصرفت الثانية همه إلى اللفظ البليغ والعبارة الطنانة ، التي تدل على بصر باللغة وتمكن من آثار خزلها المتقدمين ؛ ويتجلى الفرق بين مدى الأدب الانجليزي من الفنية الخالصة ، ومدى الأدب العربي منها ، من موازنة حياة الفن الخالص والتأمل الدائب ، والمعالجة المستمرة لاشكال الأدب ومواضيعه ، والطرق المتكررة لمذاهبه ومناحيه ، التي كان يحياها وردزورث وشلي وتينسون مثلاً ، وبين حياة البحترى والطائي والمثنى المتصلة أوثق اتصال بالأمراء ومناذمتهم وتلقهم ، كان الأولون كأنهم كنه الفن المنقطعون إلى آلهته في محاريبه المقدسة المصونة ، وكان الآخرون يعيشون في جلبة البلاطات وضجة المحافل والمواكب

فالادب الانجليزي بعد أن توفرت له أسباب الحضارة والثقافة والتدوين والفراغ ، التي لا بد منها لبلوغ الأدب أوج رقيه ، توفرت له أيضاً ميزتا الاستقلال بنفسه عن إرادة الحكام وخدمتهم ونزعة التجديد والحرية التي لا تقلد الماضي ولا تقف عند حدوده وبهاتين الميزتين إلى تلك الأسباب تجمعت للأدب الانجليزي كل وسائل التطور الطبيعي وبلوغ آماذ الفن الخالص ؛ أما الأدب العربي فأعوزته هاتان الميزتان ، فعمد به لإعوازهما في مجال الفن ، وأبقى به بعض شوائب الصناعة ، ومن ثم أمكن القول بأن الأدب الانجليزي بلغ طور الفن ، أما الأدب العربي في جملة فظل أقرب إلى الصناعة الفنية ؟

نحري أبو السعود

(١) فصل من كتاب « علم المالية » يقوم بطبعه ونشره « مكتب النشر العربي بدمشق »